كتب بالإنجليزية

خارج الإطار: النضال من أجل الحرية الأكاديمية في إسرائيل

Out of the Frame: The Struggle for Academic Freedom in Israel

Ilan Pappe
London; New York: Pluto Press, 2010. 246 pages.

يشعر إيلان بابه، أحد أبرز المؤرخين الإسرائيليين الجدد، بالحرج من تقديم سيرة ذاتية عن الحريات الأكاديمية في كتابه الجديد هذا، لكنه يتجاوز هذا الشعور لأن السيرة تعكس "قصة رحلة فيها أكثر من محطة، تساهم كل منها في تحويل وجهة النظر الصهيونية والتحرر منها" (المقدمة). وتتميز هذه السيرة، يكتب بابه، بأنها لا تبدأ من مكان معادٍ للصهيونية أصلاً، وإنما بالخروج منه بالتدريج.

والكتاب في أحد وجوهه قصة شخصية حزينة: إنسان ولد في حيفا في بداية الخمسينيات، لوالدين ألمانيين صهيونيين مهاجرين قُتل أهلهما في المحرقة النازية، وبحثا في مخيلتهما عن ريف ألماني في فلسطين العربية المتوسطية. نشأ بابه صهيونياً، لكنه كلما ارتحل في أرض فلسطين وإلى ذاكرتها، كمؤرخ وإنسان، ابتعد عن متخيل أهله ومجتمعه الصهيوني أوروبي الأصل، واقترب من فلسطين الفعلية. إلاّ إنه عندما التقى فلسطين، فرض عليه تهديد العنف الإسرائيلي الرحيل.

في اللحظات الشخصية التي يتناولها بابه، أو أمام العديد من القضايا التي يطرحها، يبرز السؤال: هل يمكن لإسرائيلي صادق في سعيه للسلام أن يصبح جزءاً من فلسطين من دون أن يتماهى بالحكاية الفلسطينية، أو أن يتبنى الذاكرة الفلسطينية؟

يروي الكتاب رحلة بابه نحو استعادة ذاكرة سنة ١٩٤٨ كمؤرخ إسرائيلي حاول أن يكون موضوعياً، هذه الرحلة التي قام بها في بريطانيا بعيداً عن إسرائيل، حيث درس الدكتوراه، وتتلمذ على المؤرخ ألبرت حوراني، فبدأ يكتشف الحقائق ويفكك الأساطير الصهيونية. ومع دخوله المتدرج في الحياة الثقافية الفلسطينية، تصاعد العنف الأكاديمي والمجتمعي الإسرائيلي ضده.

دعي إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس في سنة ١٩٩٣، وكان السفر من القاهرة إلى تونس بالنسبة إليه خروجاً من "الغيتو الإسرائيلي: كانت رحلة سيكولوجية تحررية من المفاهيم والعقائد السابقة" (ص ٢٥). كانت بدايات الطريق إلى أفق عربي في تونس حيث وقف أمام نصب ابن خلدون، وزار حيّ القصبة، وذلك في وقت كان يتحدث العربية بلكنة إسرائيلية، وهو ربما من أغرب ما واجهه التونسي الذي تحدث إليه بابه حينها.

لكن مع إشارات هنا وهناك في الكتاب إلى أهمية البعد العربي سياسياً وفلسطينياً في التأثير في التحرر الفلسطيني من الكولونيالية الصهيونية، فإن هذا الكتاب الصادر مباشرة قبيل الثورات العربية بدءاً من تونس ومصر وما تفتحه من احتمالات عربية جديدة للقضية الفلسطينية، يُظهر اهتماماً قليلاً بمدى تأثير العمق العربي معرفياً وسياسياً في القضية الفلسطينية. فالكتاب يبدو موجهاً بشكل أساسي، عدا طرفَي الصراع المباشرين، إلى جمهور غربي.

لم يكن المسار الذي قاد بابه إلى نقد الصهيونية ثم الانقلاب عليها أكاديمياً فحسب، بل إنه حمل ملامح فلسطينية واضحة هي جزء من تكوينه المعرفي والشخصي أيضاً. وربما بدأ ذلك من وشوشة زميلين فلسطينيين له في المدرسة عن النكبة التي لم يفهم معانيها بوضوح آنذاك. لقد مرّ بابه بمحطات فلسطينية متعددة يحرص الكتاب على إظهارها: تعرّفه إلى إدوارد سعيد ونشاطه مع مؤرخين

فلسطينيين، وصولاً إلى تسلّمه رئاسة معهد إميل حبيبي قبل مغادرته إسرائيل. والأهم من ذلك هو إصراره على ذاكرة النكبة الفلسطينية. لكن الكتاب، على الرغم من إصراره على الجدل ضد إسرائيل من داخل الرواية الفلسطينية أيضاً، يظل حذراً من ناحية محاورة السياسات الفلسطينية والعربية في بعض المحطات القليلة التي يناقشها.

وما يضفي راهنية كبيرة على كتاب بابه الجديد هو صدوره في وقت نشهد جدلاً دولياً حاداً بشأن مسألة المقاطعة الثقافية والأكاديمية. فالبعض، مثل نعوم تشومسكي، لا يرى جدوى أو عملاً أخلاقياً في فعل ذلك، بينما يصرّ آخرون على أن البعد الثقافي والفني في المقاطعة هو من أهمّ الأبعاد وأعمقها، وهو الذي ساهم بفاعلية في التواصل مع رأي عام أوسع كما كانت الحال في زمن نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا. فهناك مثلاً، معركة في نقابات الأساتذة البريطانيين، بشأن مقاطعة إسرائيل ثقافياً وأكاديمياً، وهي التي اتخذت قرارات متعاقبة في هذا الموضوع، فضلاً عن أن ثمة عدداً متزايداً من الكتّاب والفنانين العالميين يقاطعون إسرائيل ثقافياً وفنياً منذ إعلان المقاطعة الفلسطينية في سنة ٢٠٠٥.

لماذا وصل بابه في كتابه، كما في مواقفه العامة، إلى رأي بضرورة مقاطعة إسرائيل أكاديمياً؟ يُظهر الكتاب أن بابه عايش ظهوراً متزايداً لكتابات أكاديمية وثقافية تنقد الرواية الإسرائيلية، وذلك بدءاً من ثمانينيات القرن الماضي، وقد تكثفت في تسعينياته، وتحديداً بعد اتفاق أوسلو. فقد تمكن تيار "المؤرخين الجدد" الإسرائيليين من فتح نقاش أكاديمي وعام عن الرواية التاريخية الصهيونية، واعتُبر بابه آنذاك، هو وبني موريس وآفي شلايم، من أعمدة هذا التيار. وكشف المؤرخون الجدد النقاب عن مجازر سنة ١٩٤٨، وتدمير مئات القرى والبلدات الفلسطينية بهدف منع أي محاولة عملية لعودة اللاجئين (كما كشف بني موريس مع تبريره ذلك). وخرجت كتابات أكاديمية إسرائيلية "ما بعد صهيونية" فككت كثيراً من أساطير الصهيونية.

لكن الكتاب يكشف عدم القدرة على الانتصار في معركة النضال من أجل الحرية الأكاديمية في إسرائيل منذ سنة ٢٠٠٠ إلاّ من "خارج الإطار"، كما هو عنوان هذا الكتاب، ويكون ذلك، في رأي بابه، بالمقاطعة الدولية لإسرائيل. ويقدم الكتاب إجابات بليغة عن الأسئلة المتعلقة بقمع الأكاديميا الإسرائيلية في الألفية الجديدة، وبضرورة مقاطعة إسرائيل أكاديمياً، وهي أجوبة يجدها القارئ على امتداد رحلة بابه التي تجمع، بحسب كل فصل، الشخصي السردي مع التحليل الأكاديمي. فبعض عناوين الفصول التسعة يقترح إجابات عريضة مثل عناوين الفصول: "أرواح حراسة النكبة"؛ "عسكرة العقل الصهيوني"؛ "مسألة كاتز" (الطالب الذي أعدّ بحثاً عن مجازر الطنطورة فسحبت الجامعة رسالته وتعرّض للمحاكمة)؛ "معركة كتابة تاريخ سنة ١٩٤٨"؛ "القشّة الأخيرة: لبنان وغزة".

أمّا الفصل الخامس، وهو بعنوان "أفضل عدّاءة في الصف" فيفاجئ القارئ بلغته القصصية، إذ نعثر على قصة إنسانية تروي مأساة فاطمة، في زمن النكبة. وهنا يحيد الكتاب عن السيرة الذاتية كي يرسم عبر الحكاية، البعد الفلسطيني في شخصية بابه.

كانت فاطمة أفضل عدّاءة في صف المدرسة قبل نكبة ١٩٤٨، وعندما جمعت القوات اليهودية التي اقتحمت قريتها الرجال والنساء على الشاطئ في مجموعتين متباعدتين، أمرت هذه القوات النساء والأطفال بالخروج من القرية على إيقاع الشتائم والتهديدات، فركضت فاطمة مع الراكضين، وظلت تركض، ولم تذهب مع الناس الذين اقتيدوا إلى باصات الرحيل. وصلت إلى مدرستها حيث اختبأت، ومن هناك أطلت على الخارج عبر شق الباب فرأت المجزرة، وشهدت كيف حُفرت القبور، وكيف أُطلقت النار في النهاية على مَن حفروا القبور وجرى تكويمهم فوق بقية الجثث.

لغة هذا الفصل ليست قصصية فحسب، بل تبدو كأنها تحاور اللغة

الأكاديمية وسلطتها أيضاً، وهو موضوع أثير لدى بابه الذي عُرف باهتمامه بموضوع المعرفة والسلطة.

فاطمة وابنها علي، والطالب اليهودي يعقوب وأستاذه عوض، يصنعون حوارات القصة بحيث تكون الضحية، فاطمة، هي شخصية القصة الرئيسية. لا أفضلية للباحث على الضحية، فالقصة تكشف جراح فتح ذاكرة فاطمة. بدأت فاطمة تفتح ذاكرتها بتردد على الشاطئ نفسه بعد خمسين عاماً، واختارت اللحظة الملائمة التي أرادت فيها إخبار الجميع عن مكان قبور المجزرة المخفية، التي زُرعت فوقها أشجار صنوبر حملت اسم الفرقة اليهودية التي نفذت المذبحة. وبعدما تمكن الطالب وأستاذه من أخذ موافقة المحكمة على نبش القبور، قُتلت فاطمة هذه المرة وهي تركض آخذة سرها معها.

على غرار قصة فاطمة، فإن الخروج من حصرية اللغة الأكاديمية، إلى أفق أوسع مثل تجربة "جامعة البيت"، وهو عنوان الفصل السابع للكتاب الذي تعود لغته إلى السيرة الذاتية ـ العامة، سيتكرر في التجربة الواقعية لبابه كما في لغة الكتاب. وسيدعو بابه سكان المنطقة إلى لقاء في منزله، وسيخلط وثيقة للجيش الإسرائيلي عن عملية طرد في سنة ١٩٤٨ واقتباسات من مؤرخين إسرائيليين وفلسطينيين بشهادات فلسطينية وبشعر وروايات. وتأتي هذه التجربة التي تتجاوز الجانب الأكاديمي، بعدما فرضت جامعة حيفا حظراً على تنظيمه لقاءات أكاديمية في شأن النكبة، وعمّمت أجواء حظر اجتماعي حوله، وهو ما يتحدث عنه في الفصل السادس من الكتاب بلغة السيرة أيضاً. كما أن ذلك يأتي بعدما حاولت الجامعة محاكمته أكاديمياً في سبيل طرده، إلاّ إنها تراجعت أمام تضامن دولي واسع مع بابه أحرج الجامعة.

وتبدو تجربة "جامعة البيت"، التي تحدث عنها بابه في كتابه، تماثلاً إضافياً مع تجارب واقعية فلسطينية في التعليم. وتحضر في الذاكرة تجربة التعليم خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى عندما أغلق الاحتلال المدارس، أو تجربة حدثت مؤخراً في بيت لحم لتفكيك العمارة الكولونيالية الإسرائيلية التي تسائل حصرية الوسائل الأكاديمية في المعرفة.

من ناحية مماثلة، يحاور الكتاب معايير أكاديمية قمعية أُخرى، فيمرّ في أكثر من مكان على دور التاريخ الشفهي في التحقق من ذاكرة سنة ١٩٤٨. ويُظهر بابه كيف شكك أكاديميون إسرائيليون في قيمة أعمال أكاديميين فلسطينيين بسبب اعتمادهم روايات شفهية لسنة ١٩٤٨، بينما اعتبر الأكاديميون الإسرائيليون الروايات الشفهية لأهالي الناجين من المحرقة النازية أمراً مقدساً وأكاديمياً في آن معاً، مظهراً كيف تكرَّس التاريخ الشفهي أكاديمياً.

فالكتاب مساءلة متكررة لعلاقة الأكاديميا بالسلطة، أكان ذلك السلطة السياسية بشكل مباشر، أم السلطات المعرفية والمجتمعية.

وفي بيته، كملاذ أخير في محيط حيفا، يجد بابه في "جامعة البيت" (حديث الفصل السابع) حضوراً ونقاشاً وتأثراً لدى إسرائيليين عند مناقشتهم بحقائق عن التهجير القسري للفلسطينيين، وخصوصاً في حيفا التي عاش كثير من زوار بيته فيها. ويستطرد الكتاب بشأن تلك النقاشات بذكر أمثلة تطهير عرقي مثلما حدث في اللد، الأمر الذي يستحضر موضوع كتابه التفصيلي السابق عن التطهير العرقي للفلسطينيين. فكتابه هذا يلخص أفكاراً في كتبه السابقة، وهو ثمرة أعمال وتجارب سابقة.

لكن سرعان ما يحاصر اليأس أيضاً تجربة "جامعة البيت" مع بدء حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦، إذ لم يعد أحد تقريباً يكترث لزيارة جامعة البيت وأحاديثها، الأمر الذي سيتعزز في الحرب على غزة، فيفقد بابه الأمل تماماً من المجتمع الإسرائيلي. ومرة جديدة، في الفصل الثامن عن لبنان وغزة، يعود كي يتحدث في السياسة وعسكرة المجتمع الإسرائيلي وقراره السياسي، واستمرار عقلية التطهير العرقي للنكبة في ممارسات "الترانسفير الزاحف" في الضفة الغربية و"الإبادة الجماعية" في غزة، مثلما يسميها، كسياسة متبعة منذ سنة ٢٠٠٧.

ويجادل الكتاب أن الأكاديميا لا تنفصل عن المناخ السياسي، الأمر الذي يضفي على هذا الكتاب أهمية سياسية في مناقشة المجتمع الإسرائيلي. فبابه لا يكتفي بموقع الباحث الذي يكتب بهدوء أكاديمي، وإنما يتجاوزه إلى موقع المثقف الذي يسائل المجتمع والسياسة والثقافة، ويسعى لسلام فعلي في فلسطين خارج إطار الصهيونية وكولونياليتها؛ سلام يبدأ من ذاكرة النكبة، كما يؤكد الكتاب تكراراً، كي يؤسس منها حاضراً لسلام فعلي يتجاوز ذاك السلام الذي يُبنى على اعتبارات سياسية وأمنية على الرغم ممّا قد يحمله من إيجابيات. يسعى بابه لسلام مؤسس على بعد أخلاقي وثقافي يضمن حق عودة اللاجئين وتفكيك الصهيونية.

كانت فترة تسعينيات القرن الماضي استثناء أكاديمياً وسياسياً في إسرائيل، لكن مناخات تلك الفترة لم تعد حاضرة في إسرائيل مع الألفية الجديدة، إذ ستطغى من جديد، العسكرة ورقابتها على كل شيء: السياسيين والإعلام والمناخ الثقافي والأكاديمي في فترة انتفاضة الأقصى، ثم تتناميان مع الحربين على لبنان وغزة، وهو موضوع الفصل الثامن من الكتاب. وبسبب ذلك، فإن بابه، علاوة على تجربته الأكاديمية، يصل إلى نتيجة فحواها أن النضال من أجل الحرية الأكاديمية لا يمكن أن يتحقق من الداخل الإسرائيلي في الأفق المنظور، وإنما بمقاطعة إسرائيل دولياً (ص ١٨١).

ويستبطن بابه الموقف الفلسطيني مرة جديدة، فيقول إنه في مواجهة "أكثر من قرن على الفقدان وأربعين عاماً على الاحتلال، كانت الحركة الوطنية الفلسطينية والناشطون يبحثون عن ردّ ملائم... جربوا كل شيء ـ الكفاح المسلح، حرب العصابات، الإرهاب والدبلوماسية، ولم ينفع شيء منها. وعلى الرغم من ذلك، فإنهم لا يستسلمون ويقترحون الآن استراتيجيا لا عنفية ـ وهي المقاطعة، والعقوبات، وسحب الاستثمارات من إسرائيل (BDS). ومن خلال هذه الوسائل، يأملون بأن يقنعوا الحكومات الغربية بالمساعدة ليس على إنقاذهم وحدهم فقط، بل، ويا للمفارقة، على إنقاذ اليهود في إسرائيل أيضاً" (ص ١٩١ – ١٩٢). وهذه الدعوة إلى المقاطعة "تغذي الدعوة إلى مقاطعة إسرائيل ثقافياً"، يضيف بابه. إذاً، الكتاب يبني دعوته إلى المقاطعة على أسباب أكاديمية إسرائيلية واضحة، ناقشها في أكثر من فصل، وعلى الارتباط الوثيق بممارسات سياسية إسرائيلية في مجتمع إسرائيل كما بتأثيرها في الفلسطينيين. والمهم أيضاً كونها دعوة إلى نزع العسكرة عن إسرائيل، سواء أيديولوجياً كما عبّرت عنها الصهيونية وتعاليمها، والتي لجأت إلى خيار العسكرة منذ ثلاثينيات القرن الماضي، أو مادياً بمحاصرة الدعمَين العسكري والمالي الحاسمين لإسرائيل ومشاريعها العسكرية.

إن مساءلات الكتاب لعلاقة الأكاديميا بالسلطة تتجاوز موضوع الحرية الأكاديمية إلى التحرر العام، ويشير بابه إلى أن العمل الأكاديمي أنجز تحليل الصهيونية كفكر عنصري كولونيالي قاد إلى التطهير العرقي في فلسطين. ويأخذ بابه مساءلة علاقة الأكاديميا بالشأن العام إلى خطوة إضافية عملية، فيطالب ـ والكتاب يطالب القارئ أيضاً ـ بتحرّك الأكاديميين/الناشطين لربط السياق التاريخي، متمثلاً بالصهيونية وممارساتها في النكبة، بواقع الإبادة الجماعية في غزة والممارسات الإسرائيلية الحالية (فصل الكتاب الأخير). ويمكن ملاحظة أن جدل بابه بدأ فعلاً يجد طريقه لدى ناشطين دوليين في مقاطعة إسرائيل، مثل لوفين دو كواتر الأستاذ والناشط البلجيكي مؤسس محكمة راسيل لجرائم الحرب، والذي يؤكد أهمية النكبة كمدخل أساسي. وينتهي الكتاب بخاتمة عملية بعنوان "نزع السلاح الإسرائيلي"، فضلاً عن ملحق عن مجزرة الطنطورة في سنة ١٩٤٨، وهو ملحق ذو طابع تفصيلي أكاديمي يميّز بين روايات المستمعين والشهود والشائعات والوثائق. ويعود بابه في الملحق إلى نقاشات أكاديمية تأريخية يقترح فيها موضعة تاريخ المجازر في سنة ١٩٤٨، مثلاً مجازر ٦٤

قرية بين حيفا وتل أبيب بعد ١٥ أيار/مايو، لا ضمن التأريخ العسكري، وإنما ضمن تأريخ التطهير العرقي.

في النهاية، صار بابه يتلقى تهديدين إلى ثلاثة تهديدات بالقتل يومياً، فاغترب عن الدولة والمجتمع ممتلكاً ذاكرة فلسطين من جهة، ومستعيداً يهوديته من الصهيونية من جهة أُخرى، كما يؤكد. غادر بابه دولته تحت وطأة عنف متنام، كأن مغادرته محاكاة شخصية للفلسطيني هذه المرة، مثلما اختار فلسطينيون سبقوه مغادرة إسرائيل كمحمود درويش وعزمي بشارة، وأسس في النهاية أول مركز جامعي بشأن فلسطين، ضمن معهد الدراسات العربية والشرق الأوسطية، في جامعة إكستر البريطانية.

إن الأمر الفريد في رحلة كتاب بابه الذي نشأ صهيونياً وحارب في الجيش الإسرائيلي في شبابه وخدم حزباً صهيونياً، هو أنه غادر صهيونيته على إيقاعات متداخلة لا تبدو متعارضة، منها عمله الأكاديمي في بريطانيا بعيداً جغرافياً عن إسرائيل كي يصدر أول كتاب له عن مرحلة سنة ١٩٤٨، وإيقاع فلسطيني استبطنه في رحلته، إلاّ إنه يشدد أيضاً في خاتمة الكتاب على يهوديته التي أعطته منذ طفولته حصانة أخلاقية يمكنها نزع الشرعية عن الصهيونية دولياً وإسرائيلياً. وتبدو خاتمة الكتاب موجهة أيضاً إلى الأصوات اليهودية المستقلة التي تعلو في الدول الغربية مع أنها لا تزال خافتة في إسرائيل.

هذا الكتاب أكثر من كتاب عن النضال من أجل الحريات الأكاديمية. إنه سيرة وقصة يمتزج فيهما الشخصي بالعام في إظهار مدى اليأس من المجتمع الإسرائيلي في الأفق المنظور. وفي الكتاب رشاقة لغوية تتنقل، من دون تناقض، بين الأكاديمي والسيرة والسرد القصصي والكتابة السياسية. وإلى جانب ذلك كله، فإن الكتاب يحمل رسالة فكرية واضحة، ويعلن بشكل واضح القطيعة مع الصهيونية.

عمرو سعد الدين
كاتب فلسطيني